Conference Proceedings: Enhancing the Role of Islamic, Social, and Human Studies in Building Society, Volume 23, July 2026.

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

فقه الحوار في الحديث النبوي واثره في الحد من النزاعات الفكرية

ا.م.د. سمية وليد جلاب

كلية الامام الأعظم/ قسم أصول الدين بنات

م. م. ورود ضياء عبد الستار.

جامعة كركوك /كلية التربية للبنات/قسم علوم القران

"The jurisprudence of dialogue in the Prophetic Hadith and its impact on reducing intellectual conflicts

Assistant Professor Dr. Sumaya Waleed Jallab
College of Imam Al-Azam University – Department of Fundamentals of Religion (Female Section)
Lecturer Assistant Ward Dhiya Abdul Sattar
University of Kirkuk – College of Education for Women – Department of Qur'anic Sciences)

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع فقه الحوار في الحديث النبوي وأثره في الحد من النزاعات الفكرية بوصفه أحد المرتكزات المنهجية في بناء الوعي الإسلامي القائم على الاعتدال وضبط الاختلاف، وينطلق من إشكالية رئيسة مفادها: كيف أسهم المنهج الحواري في السنة النبوية في تقليص حدة النزاعات الفكرية وبناء بيئة معرفية قائمة على التعايش الفكري؟أعتمد البحث المنهج الاستقرائي التحليلي لنصوص الحديث النبوي، مع تحليل النماذج الحوارية التطبيقية في السنة النبوية، للكشف عن أبرز الأسس التي قام عليها الخطاب النبوي في إدارة الاختلاف، مثل الرفق، وحسن الاستماع، والحجة العقلية، واحترام المخاطَب، وتدرج الإقناع، وتنوع الأساليب الحوارية.وقد خلص البحث إلى أنَّ فقه الحوار في السنة النبوية يمثل نموذجًا متكاملًا في إدارة الاختلاف الفكري، حيث يتجاوز الحوار كونه وسيلة تواصل إلى كونه أداة لبناء الوعي وتقويم الفكر وتقليل النزاعات. كما تبين أن غياب هذا المنهج في الواقع المعاصر أسهم في تصاعد الاستقطاب الفكري وتفاقم النزاعات الأيديولوجية، مما يجعل الحاجة ماسة إلى تفعيله في الخطاب الديني والتربوي والإعلامي لتعزيز الأمن الفكري وترسيخ ثقافة الاختلاف المنضبط. الكلمات المفتاحية :فقه الحوار – الحديث النبوي – النزاعات الفكرية

Abstract:

This research examines the concept of dialogical jurisprudence in Prophetic Hadith and its role in reducing intellectual conflicts as a foundational approach to shaping balanced Islamic awareness. It addresses the question of how the Prophetic dialogical methodology contributed to mitigating ideological disputes and fostering a culture of intellectual coexistence.The study employs an inductive and analytical methodology to Prophetic traditions, focusing on applied models of dialogue in the Sunnah. It highlights key principles of the Prophetic discourse, including gentleness, rational argumentation, attentive listening, respect for the interlocutor, gradual persuasion, and methodological diversity in communication.**Keywords:** urisprudence of Dialogue – Prophetic Hadith – Intellectual Dialogue

المقدمة

الحمد لله الذي علَّم الإنسان البيان، وجعل الكلمة أمانة، والحوار سبيلًا إلى الهداية والإقناع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل التعارف والتفاهم من سنن الاجتماع الإنساني، فقال سبحانه:﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، المبعوث رحمةً للعالمين، الذي جسَّد في أقواله وأفعاله أرقى صور الحوار الراشد، فأقام الحجة، وداوى الشبهة، وصحح المفاهيم، وبنى مجتمعًا متماسكًا جمع بين وحدة العقيدة وتنوع الآراء، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.**أما بعد:**فإنَّ الحوار يُعد من أرقى الوسائل الحضارية التي عرفت بها الرسالات السماوية، وأعظم الأدوات التي تحفظ تماسك المجتمعات واستقرارها الفكري، إذ به تُدار الاختلافات، وتُقوَّم الانحرافات، وتُبنى جسور التفاهم بين الأفراد والجماعات. وقد أولت السنة النبوية عنايةً بالغة بالحوار بوصفه منهجًا إصلاحيًا وتربويًا وفكريًا، فلم يكن الحوار النبوي مجرد أسلوب بلاغي أو وسيلة تواصل عابرة، وإنما كان منهجًا متكاملًا في بناء الإنسان وصناعة الوعي وترشيد الخلاف.وفي ظل التحولات الفكرية المتسارعة التي يشهدها العالم المعاصر، وما نتج عنها من تنامي النزاعات الفكرية والاستقطابات الأيديولوجية والتوترات المعرفية، برزت الحاجة إلى استلهام النموذج النبوي في إدارة الاختلاف، والكشف عن الأسس التي اعتمدها الرسول(صلى الله عليه وسلم) في معالجة الشبهات، واحتواء المخالفين، وترسيخ ثقافة الحوار القائمة على الحجة والرحمة والعدل. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الموسوم بـ" :فقه الحوار في الحديث النبوي وأثره في الحد من النزاعات الفكرية"؛ للكشف عن المعالم المنهجية للحوار النبوي، وبيان دوره في بناء الأمن الفكري وتعزيز التعايش المعرفي في المجتمعات المعاصرة.

أولًا: أهمية الموضوع

تتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه يعالج قضية تمس الواقع الفكري المعاصر، وتزداد الحاجة إليها مع اتساع دوائر الاختلاف وتعدد مصادر التأثير الفكري، ويمكن إبراز أهميته فيما يأتي:

١. بيان المكانة المنهجية للحوار في السنة النبوية بوصفه أصلًا من أصول الإصلاح الفكري والاجتماعي.

٢. إبراز الدور الحضاري للحديث النبوي في معالجة الخلافات الفكرية وضبط مساراتها.

٣. الكشف عن الأسس العلمية والشرعية التي اعتمدها النبي ﷺ في إدارة الاختلاف مع المخالفين.

٤. الإسهام في تعزيز ثقافة الاعتدال والوسطية والحد من مظاهر التعصب والاستقطاب الفكري.

٥. تقديم رؤية معرفية معاصرة تستلهم الهدي النبوي في مواجهة النزاعات الفكرية الراهنة.

ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع

جاء اختيار هذا الموضوع استجابةً لجملة من الدوافع العلمية والواقعية، من أبرزها:

١. تصاعد النزاعات الفكرية في المجتمعات المعاصرة وما تتركه من آثار سلبية على الاستقرار المجتمعي.

٢. الحاجة إلى إبراز ثراء السنة النبوية في معالجة القضايا الفكرية بأساليب علمية وحوارية راقية.

٣. قلة الدراسات التي تناولت فقه الحوار النبوي وعلاقته المباشرة بالحد من النزاعات الفكرية المعاصرة.

٤. الرغبة في تأصيل مفهوم الحوار تأصيلًا شرعيًا يميزه عن المفاهيم الوافدة والتصورات المشوشة.

٥. أهمية تقديم نموذج تطبيقي مستمد من السنة النبوية يمكن الإفادة منه في المؤسسات التربوية والدعوية والثقافية.

ثالثًا: فرضية البحث

يقوم البحث على فرضية رئيسة مفادها أن فقه الحوار في الحديث النبوي يمثل منهجًا متكاملًا في إدارة الاختلاف الفكري، وأن تفعيل مبادئه وآلياته يسهم بصورة فاعلة في الحد من النزاعات الفكرية وتعزيز الأمن الفكري وترسيخ ثقافة التعايش والحوار في المجتمعات المعاصرة.

ويتفرع عن هذه الفرضية عدد من التساؤلات، من أهمها:

أ- ما المقصود بفقه الحوار في السنة النبوية؟

ب- ما أبرز السمات المنهجية للحوار النبوي؟

ت- كيف عالجت السنة النبوية النزاعات الفكرية والخلافات المعرفية؟

ث- ما أثر تطبيق المنهج الحواري النبوي في بناء التعايش الفكري المعاصر؟

رابعًا: هيكلية البحث

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيم البحث إلى مبحثين رئيسين، يسبقهما هذا التمهيد وتتلوهما خاتمة بأهم النتائج والتوصيات، وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: التأصيل المفاهيمي لفقه الحوار في الحديث النبوي والنزاعات الفكرية. ويتضمن ثلاثة مطالب:المطلب الأول: مفهوم فقه الحوار في السنة النبوية وأصوله الشرعية.المطلب الثاني: ملامح المنهج الحواري في السنة النبوية.المطلب الثالث: مفهوم النزاعات الفكرية وأسباب نشأتها. المبحث الثاني: تطبيقات فقه الحوار النبوي وأثره في معالجة النزاعات الفكرية. ويتضمن ثلاثة مطالب:المطلب الأول: النماذج الحوارية في السنة النبوية في معالجة الاختلاف الفكري.المطلب الثاني: آليات الحوار النبوي في ضبط الخلاف والحد من النزاع.المطلب الثالث: أثر فقه الحوار النبوي في بناء التعايش الفكري المعاصر .والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا للباحثين والدارسين، وأن يوفقنا للقول السديد والعمل الرشيد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: التأصيل المفاهيمي لفقه الحوار في الحديث النبوي والنزاعات الفكرية

المطلب الأول: مفهوم فقه الحوار في السنة النبوية وأصوله الشرعية

يُعدُّ الحوار من أهم الوسائل التي اعتمدتها الشريعة الإسلامية في بناء الإنسان وتوجيه المجتمع، إذ لم يكن في التصور الإسلامي مجرد أداة للتخاطب أو تبادل الآراء، بل منهجًا معرفيًا وأخلاقيًا يرمي إلى الوصول إلى الحق وإقامة الحجة وتصحيح المفاهيم، وقد تجلت هذه الحقيقة بوضوح في السنة النبوية التي قدمت نموذجًا فريدًا للحوار القائم على الحكمة والرحمة والعدل، حتى غدا الحوار سمةً بارزةً في الدعوة النبوية ومظهرًا من مظاهر عالميتها وقدرتها على استيعاب المختلفين فكريًا وعقديًا واجتماعيًا.

أولًا: تعريف الحوار في اللغة والاصطلاح

الحوار في اللغة: مشتق من مادة (حَوَر)، وهي تدل على الرجوع والمراجعة، يقال: حاوره محاورةً وحوارًا إذا راجعه الكلام وردَّ بعضه على بعض، قال ابن منظور: "الحَوْر مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة"[٢]،وذكر الفيروزآبادي أن الحوار هو التجاوب في الكلام والمراجعة فيه بين طرفين أو أكثر.[٣]ومن خلال المدلول اللغوي يتضح أن الحوار يقوم على عنصرين أساسيين هما: تبادل الكلام، ووجود طرفين أو أكثر يشتركون في عملية التواصل الفكري.

أما في الاصطلاح: فيقصد بالحوار: تبادل الرأي بين طرفين أو أكثر بقصد الوصول إلى الحقيقة أو تقريب وجهات النظر من خلال أسلوب علمي يقوم على الحجة والبرهان واحترام الطرف الآخر،وهو بهذا المعنى يختلف عن الجدل العقيم أو الخصومة الفكرية؛ لأن غايته ليست الغلبة والانتصار للنفس، وإنما الوصول إلى الحق وتحقيق المصلحة المعرفية.وقد عَرفت السنة النبوية هذا المعنى بأرقى صوره؛ إذ كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحاور أصحابه والمخالفين له بروح الباحث عن هداية الإنسان لا قهره، ولذلك ارتبط الحوار في السنة بقيم الرحمة والحكمة والتدرج في الإقناع، ويكفي أن المتأمل في كتب الحديث يجد عشرات النماذج التي قامت على السؤال والجواب والمناقشة الهادئة والاستدلال العقلي، مما يكشف عن حضور الحوار بوصفه منهجًا أصيلًا في التربية النبوية.[٤]

ثانيًا: مفهوم الفقه في الحديث النبوي

الفقه في اللغة: يدل على الفهم والإدراك الدقيق. قال ابن فارس: "الفاء والقاف والهاء أصل صحيح يدل على إدراك الشيء والعلم به" [٥]،وقال الجرجاني: "الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية".[٦]غير إنَّ الفقه في الاستعمال النبوي جاء أوسع من الدلالة الاصطلاحية المتأخرة؛ إذ ارتبط بعمق الفهم وحسن الإدراك لمقاصد الدين وغاياته،ففي الحديث الشريف: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[٧]، فالفقه هنا لا يقتصر على معرفة الأحكام، وإنما يشمل امتلاك البصيرة التي تمكّن الإنسان من فهم النصوص والوقائع وتنزيل الأحكام على مواضعها.وعلى هذا الأساس فإن المقصود بفقه الحوار هو: المعرفة العميقة بالقواعد والمبادئ والآداب التي تضبط عملية الحوار وتوجهها نحو تحقيق مقاصدها الشرعية والإنسانية. وهو ليس مجرد معرفة بمهارات التواصل، بل فهمٌ لمنهج الإسلام في إدارة الاختلاف، واستيعابٌ للأساليب التي تحقق الإقناع وتحفظ الكرامة الإنسانية في آن واحد.ومن خلال استقراء السنة النبوية يتبين إنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) مارس الحوار وفق فقه راسخ يقوم على معرفة أحوال الناس واختلاف مداركهم وتنوع بيئاتهم، ولذلك جاءت خطاباته متنوعة بحسب طبيعة المخاطبين ومستوياتهم الفكرية والاجتماعية، وهو ما يكشف عن عمق البعد الفقهي في منهجه الحواري.[٨]

ثالثًا: الأسس الشرعية للحوار في السنة المطهرة

لم يكن الحوار في السنة النبوية ممارسة عفوية أو اجتهادًا بشريًا مجردًا، بل استند إلى جملة من الأصول الشرعية التي أرست قواعده وحددت أهدافه وآدابه.ومن أبرز هذه الأسس أن الحوار في التصور النبوي يقوم على طلب الحقيقة لا الانتصار للذات؛ إذ كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يوجّه محاوريه إلى الدليل والبرهان بعيدًا عن التعصب أو المكابرة، وقد ظهر ذلك في حواره مع الشاب الذي استأذنه في الزنا، حيث لم يبدأه

بالتوبيخ أو الزجر، وإنما خاطب عقله ووجدانه من خلال أسئلة متدرجة انتهت بإقناعه وعدوله عن فكرته[٩]، كما يقوم الحوار النبوي على مبدأ احترام الإنسان مهما كان انتماؤه أو موقفه الفكري، فقد حاور النبي (صلى الله عليه وسلم) اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، وأتاح لهم فرصة عرض آرائهم وشبهاتهم، ثم ناقشها بالحكمة والبيان، وهذا يكشف عن أن الاعتراف بحق الآخر في التعبير عن رأيه يمثل أصلًا شرعيًا في المنهج النبوي.[١٠] ومن الأسس كذلك مراعاة الفروق الفردية بين المخاطبين؛ فالسنة النبوية تكشف أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يخاطب الناس بخطاب واحد، بل كان يراعي أعمارهم وثقافاتهم ومستوياتهم الإدراكية. وقد عدَّ العلماء هذا من أعظم وجوه الحكمة النبوية في التعليم والإرشاد.[١١] ومن خلال هذه الأصول يتبين أن فقه الحوار في السنة النبوية ليس مجموعة آداب شكلية، وإنما منظومة معرفية وأخلاقية متكاملة تهدف إلى صناعة الإنسان الواعي القادر على إدارة الاختلاف بروح المسؤولية والبحث عن الحقيقة، وهو ما يجعل هذا الفقه ضرورةً ملحّةً في زمن تتكاثر فيه النزاعات الفكرية وتتسع فيه دوائر الاستقطاب والتنازع.

المطلب الثاني: ملامح المنهج الحواري في السنة النبوية

لم يكن الحوار في السنة النبوية مجرد وسيلة للتواصل أو تبادل الآراء، بل مثّل منهجًا متكاملًا في بناء الإنسان وتوجيه الفكر وتقويم السلوك، إذ تجلت فيه أرقى صور الحكمة التربوية والقيادة الفكرية، وقد استطاع النبي (صلى الله عليه وسلم) من خلال منهجه الحواري أن يحول الاختلاف إلى فرصة للفهم، والاعتراض إلى مدخل للإقناع، والجهل إلى وسيلة للتعليم، حتى أصبح الحوار النبوي مدرسة قائمة بذاتها في إدارة التباين الفكري ومعالجة الأزمات العقدية والاجتماعية، ومن أبرز معالم هذا المنهج: الرفق واللين في الخطاب، ومراعاة أحوال المخاطبين، وتنوع الأساليب الحوارية بما يحقق المقصد الشرعي ويبلغ الغاية التربوية.

أولًا: الرفق واللين في الخطاب النبوي

يُعد الرفق من أهم المرتكزات التي قام عليها الحوار النبوي، إذ ارتبط نجاح الدعوة بحسن الأسلوب أكثر من ارتباطه بكثرة المجادلة أو شدة المواجهة، وقد وصف الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[١٢] ، فجعل اللين سببًا لاجتماع القلوب والتفاف النفوس حول الرسالة.ومن خلال استقراء النصوص الحديثية يظهر إنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتجنب التعنيف ما أمكن، ويستبدله بالتوجيه الهادئ الذي يحفظ كرامة المخاطب ويقوده إلى الاقتناع الذاتي، ففي حادثة الأعرابي الذي بال في المسجد لم يواجهه النبي (صلى الله عليه وسلم) بالغضب أو الإهانة، بل أمر بتركه حتى يفرغ ثم بين له الحكم برفق، فكان لذلك أعظم الأثر في تقبل التوجيه واستقرار المعنى في نفسه.[١٣] وقد قررَّ النبي (صلى الله عليه وسلم)هذا الأصل بقوله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١٤] وهذا الحديث يؤسس لقاعدة تربوية كبرى مفادها أن نجاح الحوار مرتبط بالأسلوب الذي يقدم به الحق، وأن الغلظة كثيرًا ما تؤدي إلى ردود فعل نفسية تعوق الوصول إلى الحقيقة.ويرى الإمام النووي إنَّ هذا الحديث من جوامع الكلم التي تجمع أصول التعامل مع الناس، وأن الرفق سبب لتحصيل المقاصد الدينية والدنيوية معًا.[١٥] ومن هنا فإن الخطاب النبوي لم يكن خطاب انتصار للذات، وإنما خطاب هداية وإصلاح، ولذلك غلبت عليه الرحمة والتدرج والاحتواء، وهي خصائص تمثل اليوم ضرورة ملحة في مواجهة النزاعات الفكرية المعاصرة التي كثيرًا ما تتفاقم بسبب العنف اللفظي والتخوين والإقصاء.

ثانيًا: مراعاة حال المخاطَب ومستواه الفكري

من أبرز سمات الحوار النبوي أنه لم يكن خطابًا جامدًا موجهًا إلى جميع الناس بصيغة واحدة، بل كان يراعي الفروق الفردية والعقلية والنفسية والاجتماعية بين المخاطبين، الأمر الذي يكشف عن عمق الفقه النبوي في التعامل مع الإنسان.فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخاطب كل فئة بما يناسب مداركها ومستواها العلمي، ويجيب السائل بحسب حاجته وظرفه، ولذلك جاءت أجوبته أحيانًا متعددة للسؤال الواحد؛ لأن المقصود لم يكن مجرد إعطاء المعلومة، بل تحقيق المصلحة التربوية.ومن أوضح الشواهد على ذلك أن رجلًا سأله: أي الأعمال أفضل؟ فأجابه ببر الوالدين، بينما أجاب آخر بالجهاد، وأجاب ثالثًا بإطعام الطعام، وكل ذلك بحسب حال السائل وما يناسبه.[١٦] كما راعى النبي (صلى اله عليه وسلم) الجانب النفسي للمخاطب؛ فكان يختار الوقت المناسب للتوجيه، ويتجنب ما يؤدي إلى النفرة أو الملل، وقد روى الصحابة أنه كان يتخولهم بالموعظة مخافة السآمة عليهم .ويدل ذلك على أن نجاح الحوار لا يتحقق بمجرد صحة المضمون، بل يحتاج إلى فقه الواقع الإنساني وفهم طبيعة المتلقي، وهو ما أكده الإمام أبو حامد الغزالي حين جعل معرفة أحوال المخاطبين من شروط التأثير والإرشاد.[١٧]ومن ثم فإن مراعاة الفروق الفكرية والثقافية تعد أصلًا نبويًا مهمًا في معالجة النزاعات الفكرية؛ لأن كثيرًا من الإشكالات المعاصرة تنشأ من تجاهل طبيعة المتلقي أو مخاطبته بما لا ينسجم مع خلفيته المعرفية.

ثالثًا: تنوع أساليب الحوار النبوي (الإقناع، السؤال، الاستفهام، ضرب الأمثال)

امتاز المنهج الحواري في السنة النبوية بثراء أدواته وتنوع وسائله، فلم يعتمد أسلوبًا واحدًا في الإقناع، بل استخدم جملة من الأساليب التي تراعي طبيعة الموضوع والمخاطب والهدف المطلوب.فمن ذلك أسلوب الإقناع العقلي، كما في حواره (صلى الله عليه وسلم) مع الشاب الذي استأذنه في الزنا، حيث لم يواجهه بالزجر المباشر، وإنما خاطب عقله وعاطفته بسلسلة من الأسئلة المنطقية: «أترضاه لأمك؟ أترضاه لأختك؟» حتى انتهى الشاب إلى الاقتناع الذاتي بخطأ ما طلبه.[١٨]وقد عدَّ العلماء هذا الحديث نموذجًا راقيًا للحوار الإقناعي القائم على تحريك الضمير واستثارة التفكير بدل فرض القناعة بالقوة.[١٩] كما وظف النبي (صلى الله عليه وسلم) أسلوب السؤال التعليمي، وهو من أنجح أساليب التربية الفكرية؛ لأنه يجعل المتلقي مشاركًا في الوصول إلى المعرفة. ومن ذلك قوله لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟»[٢٠] فبدأ بالسؤال لاستثارة الانتباه وتهيئة الأذهان قبل بيان المعنى المقصود.ومن الوسائل الحوارية البارزة كذلك أسلوب ضرب الأمثال، لما له من أثر في تقريب المعاني المجردة إلى الأذهان، فقد شبّه النبي (صلى الله عليه وسلم) الجليس الصالح بحامل المسك والجليس السوء بنافخ الكير، فجمع بين قوة التصوير وسهولة الفهم.[٢١]ويرى القاضي عياض أن الأمثال النبوية من أعظم وسائل البيان؛ لأنها تنقل المعنى من دائرة التجريد إلى دائرة المشاهدة الذهنية، فيصبح أكثر رسوخًا في النفس.[٢٢] ومن خلال هذه النماذج يتبين أن الحوار النبوي لم يكن خطابًا تلقينيًا، وإنما عملية فكرية تربوية متكاملة توظف العقل والعاطفة والوجدان معًا، وتستخدم الوسيلة الأنسب لتحقيق الإقناع وبناء القناعة، وهذه الخصيصة تمثل أحد أهم الأسباب التي جعلت المنهج النبوي قادرًا على احتواء الخلافات الفكرية وتحويلها إلى فرص للتفاهم والتقارب بدل أن تكون منطلقًا للتنازع والانقسام. تكشف دراسة ملامح المنهج الحواري في السنة النبوية عن منظومة متكاملة تقوم على الرفق والرحمة، وفهم طبيعة المخاطبين، وتنوع الوسائل الإقناعية والتربوية، وهي مبادئ لا تقتصر أهميتها على عصر النبوة، بل تزداد الحاجة إليها في زمن تصاعد النزاعات الفكرية والاستقطابات الأيديولوجية؛ إذ تقدم السنة النبوية نموذجًا حضاريًا قادرًا على إدارة الاختلاف وبناء الوعي وترسيخ ثقافة الحوار المسؤول.

المطلب الثالث: مفهوم النزاعات الفكرية وأسباب نشأتها

تمثل النزاعات الفكرية إحدى الظواهر الملازمة للحياة الإنسانية؛ إذ لا يكاد مجتمع يخلو من تباين في التصورات والأفكار والمواقف. غير أن الإسلام فرّق بين الاختلاف الذي يثري المعرفة ويوسع آفاق الاجتهاد، وبين النزاع الذي يتحول فيه الاختلاف إلى صراع يفضي إلى الفرقة والتنازع. ومن هنا أولت السنة النبوية عناية كبيرة بضبط مسارات التفكير والحوار، حفاظًا على وحدة الأمة وصيانةً لعقول أفرادها من الانحراف والتطرف، ولما كانت النزاعات الفكرية المعاصرة قد تجاوزت حدود النقاش العلمي لتؤثر في الأمن الفكري والاجتماعي، فإن الوقوف على مفهومها وأسبابها يعد ضرورة علمية لفهم سبل معالجتها في ضوء الهدي النبوي.

أولًا: تعريف النزاع الفكري وتمييزه عن الخلاف العلمي

النزاع في اللغة مأخوذ من المنازعة، وهي المجاذبة والمخاصمة، يقال: تنازع القوم إذا تجاذبوا الأمر واختلفوا فيه.[٢٣]أما الفكر فهو إعمال العقل في النظر والتأمل للوصول إلى المعرفة أو الحكم على الأشياء.[٢٤] وبناءً على ذلك يمكن تعريف النزاع الفكري بأنه: حالة من التصادم أو التوتر بين اتجاهات فكرية أو عقدية أو ثقافية متباينة، ينتج عنها تعصب للرأي أو رفض للرأي الآخر بما يهدد وحدة الجماعة الفكرية أو الاجتماعية.ومن المهم التمييز بين النزاع الفكري والخلاف العلمي؛ لأن الخلط بينهما أدى في كثير من الأحيان إلى تضخيم المشكلات الفكرية. فالخلاف العلمي ظاهرة صحية تنشأ عن تفاوت المدارك واختلاف مناهج الاستنباط، وقد وقع بين الصحابة رضي الله عنهم مع بقاء المودة ووحدة المقصد، أما النزاع الفكري فيتجاوز حدود البحث عن الحقيقة إلى الانتصار للذات أو الجماعة أو الاتجاه الفكري.وقد أشار الإمام الشاطبي إلى أن الاختلاف المعتبر هو ما كان ناشئًا عن الاجتهاد الصحيح، أما الاختلاف المفضي إلى التنازع والفرقة فهو منهي عنه شرعًا[٢٥]. وتؤكد السنة النبوية هذا المعنى حين نهى النبي (صلى الله عليه وسلم)عن المراء والجدال المفضي إلى الشقاق، فقال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا»[٢٦].وقد بينَ الإمام الخطابي أن المراد بالمراء هنا الجدل الذي يقصد به المغالبة والانتصار للنفس لا إظهار الحق، لأن ذلك يورث الضغائن ويفسد الأخوة.[٢٧]ومن هنا يتبين إنَّ الإسلام لا يحارب الاختلاف الفكري في ذاته، وإنما يحارب تحوله إلى نزاع يهدد وحدة الأمة ويعطل مقاصد المعرفة والحوار.

ثانيًا: الأسباب العقدية والفكرية للنزاعات

تتعدد الأسباب التي تؤدي إلى نشوء النزاعات الفكرية، غير أن أخطرها الأسباب المرتبطة بجانب الاعتقاد ومنهج التفكير؛ لأنها تشكل البنية العميقة التي تنطلق منها المواقف والأحكام.ومن أبرز هذه الأسباب ضعف التأصيل العلمي في فهم النصوص الشرعية، فإن كثيرًا من الانحرافات الفكرية

عبر التاريخ الإسلامي نشأت بسبب القراءة الجزئية للنصوص أو عزل بعضها عن بعض. وقد أشار الإمام ابن عبد البر إلى أن الجهل بمقاصد الشريعة وأصول الاستدلال من أهم أسباب الانحراف في الفهم والوقوع في البدع.[٢٨]ومن الأسباب كذلك التعصب الفكري، وهو من أخطر الآفات التي تصيب العقل؛ لأنه يحول القناعات العلمية إلى يقينيات مغلقة ترفض المراجعة والنقد. وقد عدّ الإمام أبو إسحاق الشاطبي التعصب للرأي من الأسباب الكبرى المؤدية إلى الافتراق والاختلاف المذموم.[٢٩]ك ما تسهم الشبهات العقدية والانفتاح غير المنضبط على التيارات الفكرية الوافدة في توليد كثير من النزاعات الفكرية، ولا سيما عندما تُستورد المفاهيم دون مراعاة خصوصية البيئة الإسلامية أو أصولها المعرفية.ويذكر الإمام الطيبي إنَّ الشبهات إذا استقرت في الأذهان دون معالجة علمية تحولت إلى منطلق للخصومات والانقسامات الفكرية.[٣٠] كما أن ضعف التربية الإيمانية يؤدي إلى اضطراب الموازين الفكرية؛ لأن العقل حين ينفصل عن القيم العقدية يصبح أكثر عرضة للتأثر بالأهواء والمصالح والانفعالات النفسية، وهو ما يجعل النزاع يتحول من مستوى الأفكار إلى مستوى الصراع.

ثالثًا: العوامل الاجتماعية والثقافية المؤثرة في تضخم النزاعات الفكرية

لا تنشأ النزاعات الفكرية بمعزل عن السياق الاجتماعي والثقافي الذي يحتضنها؛ بل كثيرًا ما تتضخم بسبب عوامل خارج الإطار المعرفي البحت.ومن أهم هذه العوامل التحولات الاجتماعية المتسارعة التي تشهدها المجتمعات المعاصرة؛ إذ تؤدي سرعة التغير في أنماط الحياة والقيم والعلاقات الاجتماعية إلى ظهور رؤى متباينة حول قضايا الدين والثقافة والهوية، الأمر الذي يهيئ بيئة خصبة للتوتر الفكري.كما أسهمت الثورة الرقمية في توسيع دائرة الاختلافات الفكرية؛ إذ أتاحت لكل فرد أن يكون منتجًا للمعلومة وناشرًا لها دون ضوابط علمية أو معرفية. وقد أدى ذلك إلى انتشار الآراء المتطرفة والخطابات الاستقطابية التي تغذي النزاعات وتعمق الانقسامات.ومن العوامل المؤثرة كذلك ضعف المؤسسات العلمية والتربوية في أداء دورها التوجيهي، إذ كلما تراجع حضور المرجعيات العلمية الرصينة ازداد تأثير الخطابات العاطفية والشعارات الأيديولوجية التي تفتقر إلى التأصيل الشرعي.وقد أشار الإمام الماوردي إلى إنَّ اضطراب المرجعيات العلمية يؤدي إلى اضطراب الأحكام واختلال انتظام المجتمع.[٣١] كما تلعب المؤثرات الثقافية الوافدة دورًا كبيرًا في تضخم النزاعات الفكرية، خصوصًا عندما تُطرح نماذج ثقافية مغايرة للمنظومة القيمية الإسلامية بوصفها بدائل نهائية لا تقبل النقاش، مما يخلق حالة من الاستقطاب بين الرفض المطلق والقبول المطلق.وقد لفت الإمام الخطابي النظر إلى أن غياب الفقه الصحيح في التعامل مع المستجدات يفضي إلى الإفراط أو التفريط، وكلاهما سبب من أسباب الاضطراب الفكري[٣٢] يتضح مما تقدم إنَّ النزاع الفكري يختلف جوهريًا عن الخلاف العلمي المشروع؛ فالأول يقوم على الصراع والتعصب، بينما يقوم الثاني على البحث عن الحقيقة في إطار من الاحترام والانضباط العلمي. كما أن النزاعات الفكرية تنشأ من تداخل عوامل عقدية وفكرية واجتماعية وثقافية متعددة، الأمر الذي يجعل معالجتها تحتاج إلى منهج متكامل يجمع بين التصحيح المعرفي والتربية الإيمانية وبناء ثقافة الحوار، ومن هنا تتجلى أهمية فقه الحوار النبوي بوصفه الإطار العملي القادر على ضبط الاختلاف وتحويله من مصدر للنزاع إلى وسيلة للإثراء الفكري والتماسك المجتمعي.

المبحث الثاني: تطبيقات فقه الحوار النبوي وأثره في معالجة النزاعات الفكرية

المطلب الأول: النماذج الحوارية في السنة النبوية في معالجة الاختلاف الفكري

تكشف السنة النبوية عن منهج عملي متكامل في إدارة الاختلافات الفكرية والعقدية، إذ لم يقتصر النبي (صلى الله عليه وسلم) على بيان الأحكام أو تقرير العقائد، بل مارس الحوار بوصفه وسيلة إصلاحية وتربوية قادرة على تفكيك الإشكالات الفكرية وتقويم التصورات الخاطئة. وقد تنوعت النماذج الحوارية النبوية بتنوع الأطراف المخاطبة؛ فشملت المشركين وأهل الكتاب والمنافقين والصحابة، مما أظهر مرونة المنهج النبوي وقدرته على التعامل مع مختلف البيئات الفكرية والثقافية، وتبرز أهمية هذه النماذج في كونها تقدم رؤية عملية لمعالجة النزاعات الفكرية المعاصرة على أساس الحكمة والحجة والاحترام المتبادل.

أولًا: حوار النبي (صلى الله عليه وسلم) مع المشركين وأهل الكتاب

تميزت الحوارات النبوية مع المشركين وأهل الكتاب بأنها قامت على مبدأ الدعوة بالحكمة وإقامة البرهان العقلي مع المحافظة على أدب الخطاب واحترام إنسانية المخاطب. فلم يكن الهدف من الحوار مجرد الانتصار الجدلي، وإنما هداية الإنسان إلى الحق وإزالة ما يعتري فكره من شبهات.ومن أوضح الشواهد على ذلك ما وقع في حواره (صلى اله عليه وسلم) مع وفد نصارى نجران حين قدموا إلى المدينة لمناقشة قضية ألوهية المسيح عليه السلام، فاستمع إليهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وناقشهم بالحجة والبيان دون إكراه أو تعنيف، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.[٣٣] [٣٤]ويذكر ابن كثير أن هذا الحوار النبوي يمثل نموذجًا رفيعًا في مخاطبة المخالفين بالعلم والعدل بعيدًا عن التعصب والانفعال.[٣٥]كما يظهر المنهج الحواري في مخاطبة المشركين من خلال اعتماده (صلى الله عليه وسلم) الاستدلال العقلي لإبطال معتقداتهم، ومن

ذلك محاورته لهم في قضية التوحيد وإقامة الأدلة على بطلان عبادة الأصنام، وقد بين القرآن الكريم إنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يجادلهم بالتي هي أحسن ويستثير عقولهم للنظر والتفكر، وهو ما يشكل أساسًا في معالجة الانحرافات الفكرية والعقدية.[٣٦]ويلاحظ أن الحوارات النبوية مع المخالفين لم تؤسس لمنطق الصدام الحضاري أو الإقصاء الفكري، وإنما قامت على التعارف والحجة والاحترام، وهو ما جعل كثيرًا من الخصوم يتحولون إلى مؤمنين بعد أن لامست الحجة عقولهم والرحمة قلوبهم.

ثانيًا: حواراته مع الصحابة في القضايا الاجتهادية

إذا كان الحوار مع المخالف الخارجي يكشف عالمية الرسالة الإسلامية، فإن الحوار مع الصحابة رضي الله عنهم يكشف عمق التربية النبوية في إدارة الاختلاف داخل الجماعة المؤمنة نفسها.وقد شهد العصر النبوي صورًا متعددة من الاختلاف الاجتهادي الذي لم يتحول إلى نزاع أو خصومة؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) رسخ ثقافة التماس العذر وقبول التعدد في الفهم ما دام منطلقًا من طلب الحق.ومن أشهر النماذج ما وقع في غزوة الأحزاب عندما قال النبي(صلى الله عليه وسلم): «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، ففهم بعض الصحابة ظاهر النص فأخروا الصلاة حتى وصلوا، بينما رأى آخرون إن المقصود الحث على الإسراع فصلوا في الطريق، فلما بلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يعنف فريقًا منهما.[٣٧]وقد استنبط العلماء من هذا الموقف أصلًا مهمًا في مشروعية الاختلاف الاجتهادي إذا استند إلى فهم معتبر للنصوص. يقول الإمام ابن بطال: "وفيه أن المجتهدين إذا اختلفوا في فهم النص وكان قصدهم الحق فلا إثم على واحد منهم". [٣٨] كما يتجلى المنهج الحواري في مواقف كثيرة كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستمع فيها إلى آراء أصحابه ويناقشهم ويقبل اجتهاداتهم، كما حدث في أسرى بدر وفي عدد من القضايا السياسية والعسكرية والاجتماعية، مما يدل على أن الحوار كان جزءًا من البناء الفكري للمجتمع النبوي.[٣٩]وتكشف هذه النماذج أن السنة النبوية لم تجعل الاختلاف الاجتهادي سببًا للفرقة، بل حولته إلى مصدر للثراء العلمي وتوسعة دائرة الفهم، وهي قاعدة شديدة الأهمية في معالجة النزاعات الفكرية المعاصرة.

ثالثًا: نماذج تطبيقية في معالجة الشبهات

من أبرز خصائص الحوار النبوي أنه لم يتجاهل الشبهات الفكرية، بل واجهها مواجهة علمية هادئة تقوم على كشف الخلل في التصور وإعادة بناء القناعة على أسس صحيحة.ومن أروع الأمثلة على ذلك ما وقع مع الشاب الذي جاء يستأذن النبي (صلى الله عليه وسلم) في الزنا، فقد كان يحمل تصورًا فكريًا منحرفًا تجاه القضية الأخلاقية، إلا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يقابله بالتوبيخ، وإنما عالج أصل الفكرة بالحوار العقلي الهادئ، حتى انتهى الشاب بنفسه إلى رفض ما كان يطلبه.[٤٠]ويذكر الإمام المنذري أن هذا الحديث أصل عظيم في معالجة الانحرافات الفكرية والنفسية بالحوار والإقناع لا بالعنف والمواجهة المباشرة.[٤١]ومن النماذج المهمة كذلك معالجة النبي (صلى الله عليه وسلم) للشبهة التي وقعت لبعض الصحابة يوم الحديبية حين استشكلوا بعض بنود الصلح، فكان يجيب عن تساؤلاتهم ويوجه أنظارهم إلى المقاصد البعيدة للأحداث حتى زال ما في نفوسهم من اضطراب.[٤٢]كما عالجَ (صلى اله عليه وسلم) الشبهات العقدية التي قد تعرض للإنسان بسبب الوساوس أو الخواطر الفكرية، فعندما جاء بعض الصحابة يشكون ما يجدونه في أنفسهم من وساوس تتعلق بالعقيدة لم يتهمهم بسوء الإيمان، بل طمأنهم وبيّن لهم أن وجود الكراهية لتلك الوساوس دليل على صحة الإيمان .[٤٣]ومن خلال هذه المواقف يتضح إنَّ المنهج النبوي في معالجة الشبهات يقوم على الحوار المباشر، والإنصات للمشكلة، وفهم جذورها الفكرية والنفسية، ثم معالجتها بالحجة والرحمة معًا، وهو منهج ما تزال الحاجة إليه قائمة في زمن تتكاثر فيه الشبهات وتتعدد فيه مصادر التأثير الفكري.تؤكد النماذج الحوارية الواردة في السنة النبوية إنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أسس مدرسة متكاملة في إدارة الاختلاف الفكري ومعالجة الانحرافات العقدية والفكرية. فقد جمع في حواره مع المشركين وأهل الكتاب بين الحجة والعدل، وفي حواره مع الصحابة بين التربية والاجتهاد، وفي معالجته للشبهات بين الإقناع والاحتواء، ومن ثم فإن هذه النماذج لا تمثل أحداثًا تاريخية فحسب، بل تشكل منهجًا حضاريًا متجددًا يمكن الإفادة منه في بناء ثقافة الحوار والحد من النزاعات الفكرية في المجتمعات المعاصرة.

المطلب الثاني: آليات الحوار النبوي في ضبط الخلاف والحد من النزاع

يُعدُّ فقه الحوار في السنة النبوية من أهم الآليات الشرعية التي أسهمت في ضبط مسارات الاختلاف الإنساني والفكري، إذ لم يتعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع التباين في الآراء والمواقف بوصفه ظاهرة طارئة ينبغي إلغاؤها، بل باعتباره حقيقة اجتماعية وفكرية تحتاج إلى إدارة حكيمة تُبقي الخلاف في دائرة الاجتهاد المشروع وتمنع تحوله إلى نزاع ممزق لوحدة الأمة. ومن هنا جاءت السنة النبوية حافلة بالضوابط الحوارية التي تُؤسِّس لثقافة قبول الاختلاف، وتواجه الشبهات بالحجة، وتغرس أدب الخلاف القائم على الاحترام والتجرد للحق، وهو ما يمثل حاجة ملحّة في زمن تصاعد الاستقطابات الفكرية والنزاعات الأيديولوجية.

أولاً: بناء ثقافة قبول الاختلاف المنضبط

تكشف النصوص النبوية عن وعي عميق بطبيعة التفاوت في الفهم والاجتهاد بين الناس، ولذلك لم يكن المقصود من الحوار النبوي إلغاء الاختلاف، وإنما توجيهه نحو المقاصد الشرعية وضبطه بقواعد العلم والعدل. فالاختلاف المقبول هو ما استند إلى الدليل والاجتهاد المعتبر، أما الاختلاف المذموم فهو ما تأسس على الهوى والتعصب واتباع الظنون.وقد تجلى ذلك بوضوح في موقف النبي (صلى الله عليه وسلم) من الصحابة يوم بني قريظة حين قال: «لا يُصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، ففهم فريق ظاهر النص فأخر الصلاة، بينما فهم فريق آخر مقصود المبادرة فصلوا في الطريق، فلم يعنف النبي (صلى الله عليه وسلم) أحداً من الفريقين، إقراراً لمشروعية الاجتهاد إذا كان منطلقه طلب الحق.[٤٤]ويؤكد هذا المنهج أن وحدة الأمة لا تعني وحدة الآراء في كل الجزئيات، وإنما تعني الاجتماع على الأصول والثوابت مع التسامح في المسائل الاجتهادية. ولذلك عدَّ العلماء سعة الشريعة ومرونتها من أهم أسباب استيعابها للاختلاف المشروع، وهو ما أشار إليه الإمام الشاطبي عند حديثه عن الاجتهاد وتنوع المدارك الإنسانية .[٤٥]كما إنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يربي أصحابه على تقديم رابطة الإيمان فوق الاعتبارات الفكرية والشخصية، فكان الخلاف عندهم وسيلة للوصول إلى الحق لا سبيلاً للخصومة والانقسام، الأمر الذي أسهم في بناء مجتمع فكري متماسك رغم تنوع الاجتهادات والآراء.[٤٦]ومن هنا يمكن القول إن السنة النبوية أرست مبدأ "الاختلاف المنضبط" بوصفه ضرورة معرفية وحضارية تحفظ التوازن بين الثبات على الحق والانفتاح على الاجتهاد.

ثانياً: تفكيك الشبهات بالحجة والبرهان

من أبرز خصائص الحوار النبوي اعتماده البرهان العقلي والدليل الشرعي في معالجة الشبهات الفكرية والعقدية، إذ لم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) يواجه التساؤلات والاعتراضات بالتوبيخ أو الإقصاء، بل كان يحولها إلى فرصة تربوية لإيضاح الحقائق وترسيخ اليقين.ويكشف هذا النموذج عن أن معالجة الانحرافات الفكرية لا تتحقق بمجرد إصدار الأحكام، بل تحتاج إلى فهم الخلفيات النفسية والفكرية التي أفرزتها، ثم مناقشتها بأسلوب علمي هادئ، وقد عدَّ العلماء هذا الحديث أصلاً في محاورة أصحاب الشبهات ومناقشتهم بالتي هي أحسن.[٤٧]كما نجد في السنة نماذج أخرى تؤكد مركزية البرهان العقلي، كإجابة النبي (صلى الله عليه وسلم) للأعرابي الذي سأل عن نسبة الولد إلى أبيه مع اختلاف اللون، فاستعمل النبي (صلى اله عليه وسلم) قياساً عقلياً قريباً من فهم السائل لإزالة الشبهة وترسيخ القناعة.[٤٨]ولهذا فإن السنة النبوية تقدم نموذجاً معرفياً متكاملاً في مواجهة الانحرافات الفكرية، يقوم على الحوار والإقناع لا على المصادرة والإلغاء، وعلى البرهان لا على الانفعال، وهو منهج ما تزال المجتمعات المعاصرة في أمسّ الحاجة إليه.

ثالثاً: تعزيز أدب الاختلاف ونبذ التعصب الفكري

إذا كان الحوار وسيلة للوصول إلى الحقيقة، فإن أدب الاختلاف هو الضمانة الأخلاقية لاستمرار الحوار وعدم تحوله إلى نزاع. وقد أولت السنة النبوية هذا الجانب عناية كبيرة؛ لأن كثيراً من النزاعات الفكرية لا تنشأ من ضعف الأدلة بقدر ما تنشأ من التعصب للأشخاص أو الآراء أو الانتماءات.كما ربّى النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على احترام المخالف والإنصاف معه، ولذلك لم يكن يربط الخطأ بانتقاص صاحبه، بل كان يفرق بين نقد الفكرة وصيانة كرامة الإنسان، وقد ظهر هذا المنهج في مواقف كثيرة تعامل فيها مع أخطاء بعض الصحابة برفق وحكمة دون أن يهدر مكانتهم أو يجرح مشاعرهم .[٤٩]ومن القواعد الحوارية المهمة التي رسختها السنة النبوية ضرورة إحسان الظن بالمخالف وعدم التسرع في الحكم على المقاصد والنيات، لأن كثيراً من الخصومات الفكرية تتولد من سوء الفهم قبل أن تتولد من حقيقة الخلاف، وقد بيّن الإمام النووي إنَّ حمل كلام المسلم على أحسن المحامل من أصول الأخلاق الشرعية التي تحفظ وحدة المجتمع وتمنع انتشار العداوات.[٥٠] كما إنَّ التعصب الفكري يؤدي غالباً إلى انغلاق العقل ورفض المراجعة، بينما يربي المنهج النبوي المسلم على التواضع العلمي والرجوع إلى الحق متى ظهر دليله. ولهذا قال الإمام أبو حامد الغزالي إن أعظم آفات الجدل أن يتحول طلب الحق إلى طلب الغلبة، فإذا غلبت الرغبة في الانتصار للنفس ضاع مقصد العلم وفسدت ثمرة الحوار.[٥١] وبذلك يتضح أن السنة النبوية لم تقتصر على تنظيم الجانب المعرفي للحوار، بل أسست أيضاً لمنظومة أخلاقية متكاملة تجعل من الاختلاف باباً للتكامل المعرفي لا وسيلة للتنازع، ومن الحوار جسراً للتفاهم لا أداة للخصومة، وهو ما يمنح فقه الحوار النبوي قدرة متجددة على معالجة النزاعات الفكرية المعاصرة وترشيدها ضمن إطار العلم والعدل والاحترام المتبادل.

المطلب الثالث: أثر فقه الحوار النبوي في بناء التعايش الفكري المعاصر

يمثل فقه الحوار في السنة النبوية أحد المرتكزات الجوهرية في بناء منظومة التعايش الفكري داخل المجتمع الإسلامي، إذ لا يقتصر أثره على إدارة الاختلاف في السياق التاريخي الأول، بل يمتد ليؤسس إطاراً حضارياً قادراً على ضبط التعدد الفكري المعاصر، وإعادة إنتاج خطاب وسطي

متوازن يحقق الأمن الفكري ويحد من مظاهر الاستقطاب والتنازع الأيديولوجي. فالسنة النبوية، بمنهجها القائم على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، تقدم نموذجاً عملياً في تحويل الاختلاف من عامل تهديد إلى عنصر إثراء حضاري ومعرفي.

أولاً: ترسيخ الأمن الفكري في المجتمع

يُعد الأمن الفكري من أهم مقاصد الخطاب النبوي في إدارة الاختلاف، إذ سعى النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى بناء مجتمع مستقر عقائدياً وفكرياً، يحفظ أفراده من الانحرافات والشبهات، ويؤسس لوعي معرفي متوازن يقوم على اليقين لا على الاضطراب والشك.وقد تجلى هذا المعنى في منهجه (صلى الله عليه وسلم) في معالجة الأسئلة العقدية المثيرة للقلق الفكري، حيث كان يجيب عنها بأسلوب يرسخ الطمأنينة ويمنع تزعزع الإيمان، كما في توجيهاته المتعلقة بالقدر والإيمان بالغيب، إذ كان ينهى عن التعمق المؤدي إلى الوسوسة والانقسام الفكري.كما إنَّ النبي (صلى اله عليه وسلم) ان يراعي مستوى الإدراك العقلي للمخاطبين، فيخاطب كل فئة بما يناسبها، مما يضمن وصول المعنى دون إحداث صدمة فكرية تؤدي إلى الاضطراب، وهو ما أشار إليه العلماء في باب "مخاطبة الناس على قدر عقولهم"[٥٢] وبذلك أسهم فقه الحوار النبوي في بناء وعي جمعي آمن، يوازن بين الثبات على الأصول والانفتاح على الفهم الصحيح، وهو ما يشكل جوهر الأمن الفكري في التصور الإسلامي.

ثانياً: تقليل الاستقطاب الفكري والنزاعات الأيديولوجية

تُعد ظاهرة الاستقطاب الفكري من أبرز التحديات المعاصرة التي تؤدي إلى تفكك المجتمعات وانقسامها إلى تيارات متصارعة، غير أن المنهج النبوي في الحوار أسهم في تقليل حدة هذا الاستقطاب من خلال ترسيخ قيم الإنصاف، ونزع فتيل التعصب، وإعادة توجيه الخلاف نحو مساره العلمي المنضبط..فقد تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع التنوع داخل المجتمع الإسلامي الأول بوصفه تنوعاً مشروعاً لا يستدعي الإقصاء، بل يستوجب الإدارة الحكيمة، كما في تعامله مع اختلاف اجتهادات الصحابة في عدد من القضايا، حيث حافظ على وحدة الجماعة مع الإقرار بتعدد الفهوم والاجتهادات[٥٣]ويشير هذا المنهج إلى أن معالجة الاستقطاب لا تكون بإلغاء الآراء المختلفة، وإنما بضبطها ضمن إطار أخلاقي وعلمي يضمن بقاء التعدد دون تحول إلى صراع.

ثالثاً: إسهام فقه الحوار في بناء خطاب إسلامي معاصر متوازن

يمثل فقه الحوار النبوي أساساً منهجياً لبناء خطاب إسلامي معاصر قادر على التفاعل مع التحولات الفكرية والثقافية دون أن يفقد هويته أو ينغلق على ذاته. فهو خطاب يجمع بين الأصالة والانفتاح، وبين الثبات على المبادئ والمرونة في الأسلوب.وقد أظهر النبي (صلى اله عليه وسلم) في حواراته نموذجاً متقدماً في التوازن الخطابي، حيث كان يستخدم أساليب متعددة من الإقناع العقلي، والبرهان النقلي، والمثال الحسي، بما يتناسب مع طبيعة المخاطب والسياق، وهو ما يجعل خطابه (صلى الله عليه وسلم) نموذجاً تأسيسياً في التواصل الفكري الفعال.[٥٤] كما إنَّ هذا الفقه يتيح إعادة صياغة الخطاب الديني المعاصر بطريقة تستوعب التحديات الفكرية الحديثة، مثل العولمة الثقافية وتداخل المرجعيات القيمية، دون الوقوع في الانغلاق أو الذوبان، بل عبر خطاب وسطي قادر على الإقناع والتأثير.ويؤكد العلماء المعاصرون في دراسات الفكر الإسلامي أن استعادة المنهج النبوي في الحوار يعد شرطاً أساسياً لتجديد الخطاب الديني، بما يجعله قادراً على معالجة الإشكالات الفكرية المعاصرة بلغة علمية رصينة وأسلوب تواصلي فعال.[٥٥] وبذلك يتضح أن فقه الحوار النبوي لا يمثل مجرد تراث تاريخي، بل هو منظومة معرفية متكاملة قادرة على الإسهام في صناعة وعي معاصر متوازن، يعيد التوازن للعلاقة بين الفكر والدين، وبين الاختلاف والوحدة، وبين الحرية والمسؤولية، وهو ما يجعل من هذا الفقه ضرورة حضارية لا غنى عنها في زمن التعددية الفكرية المتسارعة.

الخاتمة

الحمدُ للهِ الذي علَّم بالقلم، وهدى الإنسان إلى سواء السبيل، وجعل الكلمة أمانةً، والحوار ميزانًا، والاختلاف رحمةً إذا انضبط بالعلم والعدل، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، الذي أسّس بسنته منهج الحوار الراشد، فهذّب العقول، وجمع القلوب، وأزال عن الفكر غبار التعصب والجدل العقيم، فكان (صلى الله عليه وسلم) مدرسةً خالدة في فقه الاختلاف وأدب الحوار.وبعد هذه الرحلة العلمية في رحاب "فقه الحوار في الحديث النبوي وأثره في الحد من النزاعات الفكرية"، يتضح أن السنة النبوية لم تكن خطابًا نظريًا مجردًا، بل منهجًا عمليًا متكاملًا في إدارة العقول قبل إدارة المواقف، وفي بناء الإنسان قبل بناء الجدل. وقد ظهر من خلال البحث أن الحوار النبوي لم يكن وسيلة لإسكات الآخر، بل وسيلة لإحيائه معرفيًا، وتقويم مساره الفكري دون إقصاء أو عنف فكري.وتتجلى أهم النتائج التي انتهى إليها البحث فيما يأتي:

١. أنَّ فقه الحوار في السنة النبوية يمثل منظومة شرعية متكاملة تضبط الاختلاف وتمنع تحوله إلى نزاع فكري .

٢. أنَّ المنهج النبوي في الحوار يقوم على الرفق والحكمة ومراعاة مستويات الفهم المختلفة للمخاطَبين .

٣. أنَّ السنة النبوية فرّقت بين الاختلاف العلمي المشروع والنزاع الفكري المذموم القائم على التعصب والهوى .
٤. أنَّ معالجة الشبهات في الخطاب النبوي اعتمدت على البرهان العقلي والحجة المقنعة لا على الإقصاء أو المصادرة .
٥. أنَّ فقه الحوار النبوي أسهم في بناء ثقافة قبول الاختلاف المنضبط داخل المجتمع الإسلامي الأول .
٦. أنَّ تعزيز أدب الاختلاف كان ركيزة أساسية في الحد من الاستقطاب الفكري وصناعة التعايش المجتمعي .
٧. أن الحوار النبوي أسهم في ترسيخ الأمن الفكري عبر معالجة الشكوك الفكرية بمنهج الطمأنينة لا التخويف .
٨. أنّص تطبيقات الحوار في السنة تقدم نموذجًا صالحًا لمواجهة النزاعات الأيديولوجية في الواقع المعاصر .
٩. أن فقه الحوار النبوي يُعد أساسًا في بناء خطاب إسلامي معاصر متوازن يجمع بين الأصالة والمعاصرة .
١٠. أنَّ استحضار هذا الفقه اليوم ضرورة حضارية لحماية المجتمعات من الانقسام الفكري والتطرف .

وختامًا، نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لعباده، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا جميعًا إلى الكلمة التي تجمع ولا تفرق، وتهدي ولا تضل، وتبني ولا تهدم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المصادر:

القرآن الكريم

١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.
٢. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٥م.
٣. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.
٤. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
٥. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
٧. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٨. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، دار الرسالة العالمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
٩. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
١٠. دلائل النبوة، أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
١١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
١٢. إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ.
١٤. المنهاج شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
١٥. الأذكار، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
١٦. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
١٧. أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.
١٨. العزلة، أبو سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى.
١٩. الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
٢٠. الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، دار ابن عفان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٢١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.
٢٢. تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٢٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
٢٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.
٢٥. السيرة النبوية، ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

٢٦.المعجم الكبير، الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.
٢٧.الترغيب والترهيب، عبد العظيم المنذري (ت ٦٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
٢٨.منهجية الدعوة المعاصرة، مجموعة من الباحثين، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى.
٢٩.تراث الترمذي العلمي، أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى.
٣٠.المدخل إلى جامع الإمام الترمذي، الطاهر الأزهر خذيري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى.
٣١.تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري (ت ٢٠١٠م)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

هوامش البحث

[١] سورة النحل: ١٢٥.

[٢] لسان العرب، ابن منظور، ٢١٧/٤.

[٣] ينظر :القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣٨٩ .

[٤] ينظر: تراث الترمذي العلمي، أكرم ضياء العمري، ص٣١٢ .

[٥] معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٤٢/٤.

[٦] التعريفات، الجرجاني، ص١٦٨.

[٧] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة،٧١٨/٢ برقم ١٠٣٧.

[٨] ينظر: المدخل إلى جامع الإمام الترمذي، الطاهر الأزهر خذيري، ٢٧٦/١ .

[٩] أخرجه أحمد في مسنده، ٥٤٥/٣٦.

[١٠] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ٢٤٧/١.

[١١] مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ١٦٨/٢ .

[١٢] سورة آل عمران: ١٥٩.

[١٣] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوزضوء، باب صب الماء على البول ،٨٩/١ برقم ٢٢٠.

[١٤] أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب ابر والصلة،باب فضل الرفق،برقم ٢٥٩٤.

[١٥] ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، ١٤٥/١٦.

[١٦] فتح الباري شرح صحيح البخاري،ابن حجر العسقلاني، ١١/٢ .

[١٧] ينظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٥٦/١.

[١٨] أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي أمامة الباهلي،٥٤٥/٣٦ برقم ٢٢٢١١.

[١٩] شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، ١٢٠/١٣ .

[٢٠] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة ،باب تحريم الظلم، ١٩٩٧/٤ برقم ٢٥٨١.

[٢١] أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الذبائح والصيد،باب المسك،٩٤/٧ برقم ٥٥٣٤.

[٢٢] إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ٣١١/٧ .

[٢٣] ينظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٦٧٩ .

[٢٤] مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، ٥٤٥/٣٦.

[٢٥] الاعتصام، الشاطبي، ١٨٦/٢ .

[٢٦] اخرجه ابو داود في سننه، كتاب الأدب، باب : في ترك المراء،٢٥٣/٤ برقم ٤٨٠٠.

[٢٧] ينظر: معالم السنن، الخطابي، ١٠٦/٤.

[٢٨] ينظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ٩٣٨/٢ .

[٢٩] الموافقات، الشاطبي، ٢٢٥/٥ .

[٣٠] الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، ١٨٩٠/٦.

[٣١] ينظر: أدب الدنيا والدين،الماوردي، ص ٣٤ .

[٣٢] ينظر: العزلة، الخطابي، ص ٧١ .

[٣٣] سورة آل عمران: ٦١.

[٣٤] تفسير الطبري، ٤٦٧/٦.

[٣٥] تفسير القرآن العظيم، بن كثير، ٤٨/٢.

[٣٦] ينظر: الجامع لأحكام القرآن،القرطبي، ٣٤٧/١٣ .

[٣٧] أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب الجهاد والسير، باب مرجع النبي (صلى الله عليه وسلم) من الإحزاب ،١٣٨/٣ برقم١٧٧٠.

[٣٨] شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٤٦٠/٨.

[٣٩] ينظ : السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٨٧/٢ .

[٤٠] ينظر : المعجم الكبير، الطبراني، ١٧٤/٨.

[٤١] ينظر :الترغيب والترهيب، المنذري، ٢٦٦/٣.

[٤٢] ينظر : دلائل النبوة،البيهقي، ١١٨/٤.

[٤٣] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، ٤٤٦/٢.

[٤٤] شرح صحيح البخاري، لابن بطال ٥١١/١٠ .

[٤٥] الموافقات للشاطبي، ١٧٠/٤.

[٤٦] ينظر: إحكام الأحكام، لابن دقيق العيد ٨٧/١ .

[٤٧] ينظر: شرح السنة، للبغوي ١٢٠/١٣ .

[٤٨] ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٤٥٨/١٠.

[٤٩] ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، ٢٧١/١.

[٥٠] الأذكار، للنووي، ص: ٤٣٨ .

[٥١] إحياء علوم الدين، للغزالي ٥٤/١ .

[٥٢] فتح الباري، لإبن حجر، ٢٢٥/١.

[٥٣] ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ١١٤/١٠.

[٥٤] ينظر:الشفا للقاضي، عياض، ٣١٢/١ .

[٥٥] ينظر: منهجية الدعوة المعاصرة، لعدد من الباحثين المعاصرين في الفكر الإسلامي، ص: ٧٣.